دور الشعر

في

صناعة الثورات

دور الشعر في صناعة الثورات

لم يكن الشعر في يوم من الأيام بمعزل عن الحياة العامة وما يدور فيها ، وتولى الشعراء تدوين الأحداث اليومية التي تمر بهم ، يصفونها ، ويتناولون تفاصيلها ويتطرقون إلى ما هو أكثر ، فيعرضون لعلاقة القبائل ببعضها ، وبالأمم المجاورة وما يكتنف هذه العلاقة من تغيرات بالسلب أو بالإيجاب .

وكان الشعر نقطة الانطلاق التي انبعثت منها كبار الأحداث في البيئة العربية ، كما كان الشعراء محرك الثورة الأول ، وأدلة ذلك واضحة ملموسة تنبؤنا بها كتب الأدب ومصادر التاريخ .

فمنذ العصر الجاهلي والشعر في حراك مستمر وتفاعل مع ما مرت به جزيرة العرب من أحداث ، فهذا لقيط بن يعمر الأيادي العربي الأصل والدم والنشأة تتحرك في داخله رابطة الدم ، فيسارع إلى تنبيه قومه إلى الخطر المحدق بهم وبما يبيته لهم كسرى ، ولم يمنعه عمله كاتبا في ديوان كسرى من تنبيه قومه ، وتحذيرهم مما هم فيه من غفلة حرصا على عروبتهم وخوفا عليهم يقول :

مـــالي أراكـــم نيامـــا فـــي بلهنيـــة
وقـد تـرون شـهاب الحـرب قـد سـطعا
فاشـفوا غليلـي بـرأي مـنكم حصـد
يصبح فؤادي به ريان قد نـقـعـا
صـونوا جيـادكم وأجلـوا سـيوفكم
وجـددوا للقسـي النبـل والـشـرعـا

لا تثمـــــروا المـــــال للأعـــــداء إنهـــــم
إن يظهروا يحتـــوكم والـــتلاد مـــــمـــــــا
يـــــاقوم إن لكـــــم مـــــن إرث أولكـــــم
مجدا أحـــاذر أن يفنـــى وينـــــقـــــطـــــعا
مـــــاذا يـــــرد علـــــيكم عـــــز أولكـــــم
إن ضاع آخره أو ذل وانـــــضـــمـــــــا؟
يـــــاقوم لا تـــــأمنوا إن كنـــــتم غيـــــرا
على نسـائكم كسـرى ومـا جمـــــمـــــــا
هـــــو الفنـــــاء الـــــذي يجتـــــث أصـــــلكم
فمن رأى مثل ذا رأيـا ومـن ســـمـــــــا؟
قومـــــوا قيامـــــا علـــــى أمشـــــاط أرجلكـــــم
ثم أفزعوا قد ينـال الأمـن مـن فـــــزعـــــا
وقلـــــدوا أمـــــركم لله دركـــــــــــــــــم
رحب الذراع بـأمر الحـرب مضـــــطـــــلعا
هـــــذا كتـــــابي إلـــــيكم والنـــــذير معـــــا
لمن رأي منكم رأيا ومـن ســـمـــــــا
وقـــــد بـــــذلت لكـــــم نصـــــحي بـــــلا دخـــــل
فاســـــتيقظوا إن خيـــــر العلـــــم مـــــا نفعـــــا

فهو يذكرهم بعز أولهم ورفيع مجدهم ، طالبا منهم المحافظة عليه ، ومحذرًا من الغفلة ، وألا يغرهم رغد العيش ، وما هم فيه من نعمة ويسار ، كما يطلب منهم أن

يقلدوا أمرهم قائدًا قويا يقوم بأمرهم خير قيام ، وقد آتت النصيحة أكلها ، وتحقق له ما أراد .

وفي العصر الجاهلي – أيضا – عندما أراد الحارث بن عباد أن يحقن الدماء ويوقف الحرب التي استعرت بين بكر وتغلب ، وأودت بحياة أرواح كثيرة من القبيلتين ، فأرسل ابنا له يدعى (بجير) مع وفد من عقلاء قومه ، ليعرضوا على المهلهل قتل بجير ثأرا لكليب أخي المهلهل ويتوقف القتال بين القبيلتين ، وقبل المهلهل هذا العرض ، ولكنه أمسك ببجير وشد عليه فحز رقبته وقال عند قتله: (بؤ بشسع نعل كليب). ولما عاد الوفد وأخبروا الحارس بن عباد بما كان من أمر المهلهل وشططه ، ثارت حميته ، وقام إلى مهرة يسميها النعامة ، فجز ناصيتها ودعا قومه إلى القتال ، واندفع وهو ينشد مرتجلاً هذه الأبيات :

كل شئ مصيره لزوال ... غير ربي وصالح الأعمال

وترى الناس ينظرون جميعا ... ليس فيهم لذاك بعض احتيال

قل لأم الأغر تبكي بجيرا ... ما أتى الماء من رءوس الجبال

لهف نفسي على بجير إذا ما ... جالت الخيل يوم حرب عضال

وتساقى الكماة سما نقيعا ... وبدت البيض من قباب الحجال

وسعت كل حرة الوجه تدعو ... يا لبكر غراء كالتمثال

يا بجير الخيرات لا صلح حتى ... نملأ البيد من رءوس الرجال

وتقر العيون بعد بكاها ... حين تسقى الدما صدور العوالي

أصبحت وائل تعج من الحر ... ب عجيج الجمال بالأثقال

لا بجير أغنى قتيلا ولا ره ... ط كليب تزاجروا عن ضلال

لم أكـن مـن جناتهـا علـم الله ... وإنـي بحرهـا اليـوم صـال
قد تجنبـت وائـلا كـي يفيقـوا ... فأبت تغلـب علـي اعـتزالي
وأشـابوا ذؤابتـي ببجيـر ... قتلـوه ظلما بغـيـر قـتـال
قتلـوه بشسـع نعـل كليـب ... إن قتل الكـريم بالشسـع غـال
يا بني تغلب خـذوا الحـذر إنـا ... قد شربنا بكـأس مـوت زلال
يا بنـي تغلـب قتلتـم قتيـلا ... ما سمعنا بمثلـه فـي الخـوالي
قربا مربط النعـامـة منـي ... لقحت حرب وائل عـن حيـال
قربا مربط النعـامـة منـي ... ليس قولي يـراد لكـن فعالـي
قربا مربط النعـامـة منـي ... جـد نـوح النسـاء بالإعـوال
قربا مربط النعـامـة منـي ... شاب رأسي وأنكرتني العـوالي
قربا مربط النعـامـة منـي ... للسـرى والغـو والآصـال
قربا مربط النعـامـة منـي ... طال ليلي على الليالي الطـوال
قربا مربط النعـامة منـي ... لا عتـاق الأبطـال بالأبطـال
قربا مربط النعـامـة منـي ... واعـدلا عـن مقالـة الجهـال
قربا مربط النعـامـة منـي ... ليس قلبي عـن القتـال بسـال
قربا مربط النعـامـة منـي ... كلما هب ريـح ذيـل الشـمال
قربا مربط النعـامـة منـي ... لبجـيـر مفـكـك الأغـلال
قربا مربط النعـامـة منـي ... لكـريم متـوج بالجمـال
قربا مربط النعـامـة منـي ... لا نبيع الرجـال بيـع النعـال
قربا مربط النعـامـة منـي ... لبجيـر فـداه عمـي وخـالي

قرباهـــا لحـــي تغلـــب شـــوقا لاعتناق الكمـــاة يـــوم القتـــال

قرباها وقربا لأمـــــــتـــــي در عـــاد لاصـــا ترد حـــد النبـــال

قرباهـــا بمرهفـــات حـــداد لقراع الأبطـــال يـــوم النـــزال

ارتجل هذه الأبيات وهو يجوس خلال ديار تغلب حتى ثأر لابنه بجير وقتل منهم ما قتل.

ونزولا إلى العصر العباسي، كان الشعر الشرارة التي أشعلت نكبة البرامكة ونبهت الخليفة هارون الرشيد من غفلته بعد أن استشرى نفوذ آل برمك حتى سيطروا على كل شيء، وأمسكوا بمقاليد الأمور، وصاروا يصرفون شؤون الدولة من وراء ظهر هارون الرشيد. فما كان من المطلعين على حقيقة الأمر إلا أن يرسلوا له جارية تنشد على مسامعه قول الشاعر عمر بن أبي ربيعة:

لَيـــتَ هِنـــداً أنجَزَتنـــا مـــا تَعِـــد
وَشَـــفَت أنفُسَـــنا مِمّـــا تَجِـــد
وَإِســـتَبَدَّت مَـــرَّةً واحِـــدَةً
إِنَّمـــا العـــاجِزُ مَـــن لا يَســـتَبِد
زَعَموهـــا سَـــأَلَت جارَتَهـــا
وَتَعَـــرَّت ذاتَ يَـــومٍ تَبتَـــرِد
أَكَمـــا يَنعَتُنـــي تُبصِـــرُنني
عَمـــرٌكُنَّ اللَـــهَ أَم لا يَقتَصِـــد؟

صحيح أنه كانت هناك نية لهارون في تعديل الأمور، ولكنه عندما سمع غناء الجارية وهو يتجول في حراقته في نهر دجلة بجوار قصره انتبه من غفلته، وقام من فوره واستدعى آل برمك، وبلغت به الثورة ذروتها فلم يشفع لمربيته توسلها إليه أن

يعفو عنها، وهي تقول له : يا سيدي أنا مربيتك ، وهذه خصلات من شعرك ، وكان ما كان وما حل بآل برمك من تنكيل .

ويبدو أن الرشيد قد ندم ، فقد روي عنه أنه كان يقول : لعن الله من أغراني بالبرامكة ، فما وجدت بعدهم لذة ولا رجاء ، وودت والله أني شطرت نصف عمري وملكي وأني تركتهم على حالهم .

واستمر الشعر يذكي أتون الثورة ، ويشعل أوارها في العصر الحديث فهذا الشاعر يتخذ من التهكم والسخرية وسيلة للإثارة والحض على التمرد ، استمع إلى الشاعر معروف الرصافي يقول :

يا قوم لا تتكلموا إن الكـــلام محـــــرم

ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلا النـــوم

وتأخروا عن كل ما يقضي بأن تتقدمـــوا

ودعوا التفهم جانبا فالخير أن لا تفهموا

وتثبتوا في جهلكـــم فالشـــر أن تتعلمـــوا

أما السياســـة فاتركوا أبدا وإلا تندموا

إن السياسة سرها لو تعلمـــون مطلســـم

والعدل لا تتوسموا والظلم لا تتجهموا

من شاء ملكم أن يعيـــش اليوم وهو مكرم

فليمس لا سمع ولا بصر لديه ولا فـــم

لا يستحق كرامة إلا الأصـــــــم الأبكـــم

ودعوا السعادة إنما هي في الحياة تـــوهم

فالعيش وهو منعم كالعيش وهـــو مذمم

فارضوا بحكم الدهر مهـما كان فيه تحكـم

وإذا ظلمتم فاضحكوا طربا ولا تتظلمـــوا

إن قيل : هذا شهدكم مر فقولوا : علقـم

أو قيل إن نهاركم ليل ، فقولوا : مظلـم

أو قيل:إن ثماركم سيل، فقولوا : مفصم

أو قيل : إن بلادكم يا قوم ســـوف تقســم

فتحمدوا وتشكروا.وترتاحوا وترتموا

المصادر

١- هارون الرشيد ، منصور عبد الحكيم ، دار الكتاب العربي ص ١٠٦ وما بعدها .

٢- تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي ، شوقي ضيف ، دار المعارف .

٣- تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)، شوقي ضيف ، دار المعارف .

٤- ديوان معروف الرصافي ، دار المعارف .